شكسبير

فى يوليوس قيصر

Shakespeare's Julius Caesar

(١)

من منا لم يقرأ شكسبير؟!

وأين الذى لم يرفعه هداه أو تضطره دراسته الى متابعة شاعر الانجليز فى أثر من آثاره الفذة! ومهما اختلف المؤرخون فى شكسبير الشاعر. وشكسبير المؤلف الدرامى فقد فرغوا من شكسبير الممثل .. والممثل العصامى!

كلنا يعترف بأن هذه الآثار كتبت فى عصر من العصور. أخرجها شاعر فياض القريحة ومؤلف درامى موفق. ليكن هو غير شكسبير الممثل فهل يمنعنا ذلك أن نطلق عليه — ولو مجازاً — اسم شكسبير! ولن يضيرنا أن ننسب هذه الآثار للشاعر أو للمؤلف أو للممثل أو لغير هؤلاء. ولن يحول ذلك دون تتبعها والاستمتاع بها

كنت — فى صباى — قبل أن أدرس شكسبير أتضلع شوقاً الى تتبعه والاستمتاع بدرامة من دراماته الخالدة .. وإذ أتاحت لى ظروف مطالعاتى — المحدودة إذ ذاك — أن أجلس إلى شكسبير لأول مرة — منذ نحو تسع سنوات — وكان ذلك فى هملت « Hamlet » . فأنا أقرؤها بتأن وعناية . ويتملكنى كلما توغلت فى القراءة شعور غريب . شعور العجب يتطاول على الأعجاب!

كنت أنتظر أن أرى فى هملت — وهى من أعنف مآسى شكسبير — شيئاً عنيفاً ثائراً يخرق نواميس الكون ، فقد كان هذا مبلغ ظنى بالمأساة أى المثل التصويرى الذى حدده لى اطلاعى حينذاك!

ولكنى شهدت ناحية من المأساة أخرى ساكنة تسير فى طبيعة هادئة لا ترهق نظام الكون أو تتعداه أو تحمله ما لا يطيق. ولكنها تسايره وتماشيه وتمثل لك مختلف نواحيه من ضعف وقوة فى شكل طبيعى معقول.

وخرجت من شكسبير وأنا أحمل للحياة معنى عميقاً وأفهم المأساة بشكل جديد !

فرغت من هملت لأبدأ تاجر البندقية « The Merchant of Venice » والحق أني شككت في مقدرة المؤلف من هذه الناحية وكانت قراءتي لها أشبه بالتحدي! فلم أستطع أن أتصور أن شكسبير الشاعر الدرامي يمكنه أن يعبث بشعور الناس في كوميديا فكهة كهذه ! وأن أصدق أن ذلك المؤلف الحزين ينقلب كاتباً ساخراً ماجن الدعابة عابث الفكاهة !

وأنا مع هذا وذاك لا أريد أن أعتقد إلا أن الشاعر كان مجدداً في هذين المؤلفين لا غير فأقبل على سائر مخلفاته أتفحص عباراتها وأستوعب معانيها وأخرج في النهاية بأنه كان مجدوداً فيها جميعا !

(٢)

منذ أكثر من ثمانية عشر قرناً خلت رزقت بلدة كرونيا « Chaeronea » الأغريقية بمولود جديد يدعى بلوتارك « Plutarch » من أكبر مؤرخي الأدب القديم . وهو الذي أرخ أكثر نبلاء الأغريق والرومان الذين لعبوا أدواراً هامة في أشهر عصور تاريخ روما وأثينا واسبرطة .

وقد كادت تضيع آثار بلوتارك هذه في العصر المظلم - كما يسمونه - وهو العصر الذي اكتسحت فيه قبائل البربر آثار المدنية الرومانية في القرن الخامس عشر .

وفي أوائل القرن السادس عشر : عند ما التفت الناس ثانية إلى دراسة كتاب الأغريق والرومان القدماء ، في العصر الذي نسميه « الرينسانس » أي عصر إحياء العلوم. كان من حسن الحظ أن وقعت آثار بلوتارك في يد رجل فرنسي ساعدته الظروف على السمو من حضيض الفاقة إلى جاه نبلاء البلاط ، هو جاك أميوت « Jacques Amyot » الذي كان ذا مكانة أدبية تضارع مكانته السامية في بلاط شارل الرابع . فقد كان مترجماً يبرز شخصيات المؤلفين ويصور عواطفهم في عبارات قد تكون أدق من عباراتهم. ونشر كتاب بلوتارك بالفرنسية في سنة ١٥٥٩ : وبعد ذلك بنحو عشرين عاما ظهرت ترجمة أخرى انجليزية كان مترجمها هو السير توماس نورث « Thomas North » الذي قام بعدة ترجمات أخرى عن الفرنسية والاسبانية والايطالية وكان عنوان ترجمة السير

توماس هذه هو : « سير نبلاء الاغريق والرومان للمؤرخ الفيلسوف الكبير بلوتارك الكرونيانى - من كرونيا - ترجمها من الاغريقية إلى الفرنسية جك أميوت المستشار الملكى الفرنسى ومن الفرنسية إلى الانجليزية توماس نورث »

وقد صادفت نجاحا كبيراً ولاقت - فى انجلترا - رواجا هائلا لأن نورث كان مثل أميوت - مترجما موهقاً ، له فى النثر أسلوب جميل وروح قوية سمت به الى درجة كبار مترجمى ذلك العصر . وكان شكسبير المؤلف الدرامى يتطلع إلى القصص الجديدة التى يمكن أن يخرج منها للمسرح شيئاً صالحاً . فلما وقعت فى يده ترجمة نورث اقتبس منها بعض مآسيه نذكر منها يوليوس قيصر « Julius Caeser » وكريولانس « Coriolanus » وانطونى كليوبترا « Antony and cleopatra » وغيرها جانب اقتباسه لبعض شخصياتها فى آثاره الأخرى

ولم يتخرج شكسبير فى بعض الاحيان من نقل عبارات بلوتارك بنصها ولكن بعد تحويلها - طبعاً - من النثر العادى إلى أسلوب رواياته أى الشعر المرسل « Blauk verse »

(٣)

لم يكن شكسبير - مع ذلك - ناقلا فحسب فاننا نستطيع أن نعرف من طريقة اقتباسه لترجمات بلوتارك وتصرفه فيها بالحذف والاضافة مع مراعاة الظروف التاريخية والضرورات التى يتطلبها تكوين الدراما وربط أوصالها نستطيع أن نعرف من كل هذا كيف كان شكسبير مؤلفاً درامياً بارعا

وأنت فى قراءة شكسبير لاتؤخذ فقط بمهارته البالغة فى « حبك » الرواية وتنسيق مشاهدها . ولكنك تعجب أكثر بالرسالة التى يحملها بحملها فتحرك فى نفسك مختلف العواطف . ويجتهد الشاعر فى كل رواياته أن يطبع شعوره العميق فى نفوس النظارة فيبعث ذلك التأثير الذى يسترعى انتباههم ثم لايلبث أن يملك عليهم حواسهم ويدفعهم إلى تتبعه فى عناية . . وهو يعمد إلى تصوير المطامع البشرية فى أشكال طبيعية واضحة تثير فى النفس إحساسات وعواطف مشتركة بين كل النوع الانسانى :

الجشع - الانتقام - الحب - البغضاء - الوطنية الخ . .

كل هذه يغذى بها شكسبير شخصيات مأسية فى صور رائعة لاينكرها الواقع و إن ازدرت بها الحياة الحقة !

وأنت ترى ذلك كله فى (يوليوس قيصر) .

يمثل لك بطلها العظمة التى تناهض الطود وتسمو عليه ! والجبروت الذى يرى لصاحبه حقوق الآلهة ! غروراً يصور لصاحبه أن الشر مهما تزجيه أبالسة الجحيم لايقوى على مواجهته ! وتيهاً يخيل اليه انه بين الرومانيين ماردا بين اقزام ! وسلطانا تخضع له « وما العظيمة فيناجيه مجلس شيوخها على لسان أحد أعضائه :

« أى قيصر ! ياذا القوة والبطش والعظمة والجلال »

وطبيعى أن تنشأ إلى جانب العظمة والجبروت والغرور والسلطان صفات أخرى ملازمة هي الحسد والبغضاء واللؤم ينفثها فى هذه الرواية كاسياس الذى لايفتأ يتسقط مباذل قيصر !

لم ينحنى إجلالا لقيصر ؟ !

ولماذا لايكون له نداً - إن لم يكن أفضل !

إن قيصر نفسه ليعترف له بالذكاء والحيلة وسعة الاطلاع !

و يعمد هنا إلى مقارنة بينه وبين قيصر ولكنه يحس انها بتراء ويحاول تدعيمها ببراهين حسية تزيدها إشفاقا !

يقول ان قيصر رجل وهو أيضاً رجل !

وهو يملك مثل قيصر - قدمين ويدين وعينين وأنف وفم !

فبأى شىء يمتاز عليه قيصر حتى ينعم هو بالعظمة والجبروت والسلطان وحده !

لا . . انه لغبن فاحش لابد من تداركه !

وكان طبيعياً أن تدبر المؤامرات فى الخفاء ، وكاسياس رأسها المفكر. فمن ذا يكون رأسها الظاهر للجماهير ؟ . لايتمكن كاسياس من ذلك لأن قيصر يخشاه و يرقب فعاله ثم انه قد يكون غير محبوب من الجماهير . . . ليبحث قيصر عن رجل محبوب من الشعب يتخذه ستاراً لمطامعه . . هناك المواطن الساذج بروتوس . . هو رجل صادق الوطنية. طيب القلب . . وطيبة القلب طريق السذاجة . . فهو أذن ساذج اذا خدعه مفكر

حكيم . . ثم انه من كبار نبلاء الرومانيين المحبوبين من شعبها . . وقيصر يحبه ويثق به . ولن يصلح لزعامة المؤامرة غيره . . وتقوم هذه الصعوبة . . كيف يمكن اقناع بروتاس بالاشتراك فى مثل هذه المؤامرة مشكلة ! ولكن كاسياس يحلها بسهولة . . يحرك فى بروتوس روح وطنيته الصادقة وينفث فيه الغرور والكبر والحسد . . وما أسهل امتزاج هذه النفسات بالنفس ان لم تكن أصيلة فيها . بروتوس . . . أيها النبيل المجيد هل تنظر لنفسك بعين الانصاف ! . . قل بمن فضلك قيصر . . ألست نبيلا شجاع القلب محبا لوطنك هل يرضيك أن يحاول ذلك المخادع - قيصر - أن ينصب نفسه ملكا على روما وأنت ترى آثار استبداده الآن ولما يصل الى بغيته . . فكيف هو إن نالها ! . . وأنت أيها المواطن المخلص ألا يأخذك الجزع على رومة العزيزة ! وتستهوى هذه النغمة فؤاد بروتوس فيعاهد كاسياس على قتل قيصر لا لانه يبغضه أو يخشاه فما يزال يحبه ولكن ليخلص روما الوطن المفدى ولتحي التضحية !

وينجح كاسياس فى ضم بعض الرومانيين الى مؤامرته ؛ وتتم الاجراءات الأخرى بسرعة ويسكن الخنجر جسد قيصر فى النهاية . . ولكن الدهر يأبى الآن يذيق المتآمرين الكأس التى جرعها قيصر حتى الثمالة !

على محمد البحراوى